رثاء المرحوم جوزيف خليل

"طوبى لأنقياء القلوب
فإنهم يعاينون الله"(متى ٨/٥).

في هذه اللّحظات أيـها الأخوة والأخوات، يعاين فقيدنا الغالي جوزيف، وجه الله، لأنه عاش ومات نقي القلبِ، فطوبى له...

خـمسةٌ وسبعون عاماً قضاها مسالـماً بين أصدقائه وبيته الوالدي وعـمله في مطلع حياته، ثـم بين عائلته وعـمله بعد أن أسس مع الفاضلة شريكة حياته عائلةً من أربعة أولاد، ربياهم بدموع العين والكد والتعب وأمنالـهم العلم وغذّياهم بالقيم والأخلاق، ورسـما لـهم الطريق الـمستقيم، وها هم يسلكونه بـخوف الله ومـحبة الناس. خـمسةٌ وسبعون عاماً اتسـمت بـمجموعة ميزات تبدأ بـحب العـمل والاستقامة وتـمر بالنشاط والعنفوان، وتنتـهي بالإباء وعزة النفس، يربط بينـها نـهج صارم في السلوك والـحياة، ولئن بدا للبعض قاسياً، غير أنه ينطوي على قلبٍ كبيرٍ مليءٍ بالـحنان والعاطفة.

وربـما تكون الكؤوس الـمرة التي تـجرعـها في حياته، قد تركت أثرها البالغ في أعـماقه، فأكسبته صلابةً في الشخصية والـموقف، ومناعةً في مواجهة الضعف. فـمن فَقْده لأخيه الشاب الـمرحوم سامي، إلى مرافقة والده في مسيرة آلامه الطويلة، إلى إصابته هو بـمرض أبيه وبتر ساقه، وما ترتب على ذلك من مضاعفات نفسية وجسدية... مشاهد وحالات من العذاب عاشـها الـمرحوم جوزيف بإيـمان قوي، وواجـهها بإرادة صلبة وعزمٍ شديد. أسكن الحزن في قلبه، والألـم في أعـماقه، لكنه ظلّ على رباطة جأشه، شجاعاً قوياً، وكأني به كان يـهتدي بقول بولس الرسول:

"أنا قوي بالذي يقويني"

القوة يا أحبائي، هي من مواهب الروح القدس، وقد أفاضـها على أخينا جوزيف فتقوى بـها، وعليـها اتكل طيلة حياته.

فَقَد صحته وفَقَد ساقه لكنه لـم يفقد الأمل والرجاء، وقد تكلّلا بإباءٍ وعنفوان ساعداه في مزاولة حياته وأعـماله بشكلٍ طبيعي، بعيداً من أي إحباط أو تـخاذل، فظلّ يأتي إلى عـمله كالـمعتاد من دون أي تغيب أو تلكّؤ، يستقبل زبائنه ببسـمة مشرقة وكلـمة حلوة، مـحتـملاً ألـمه بصـمت وفرحٍ من دون أنْ يدع أحداً يلاحظ ما يعانيه، مانعاً الحزن من الظهور على وجهه الرضي، قاطعاً الطريق على الدموع فلا تستطيع بلوغ عينيه.

رقيقاً كان وحنوناً، عاش بقلبِ طفلٍ وبشخصية رجل، ولـم يشأ مرةً أن يبدو ضعيفاً حتى أمام أقرب الـمقربين إليه. ولـطالما رفض أن يشاركه أحد هـمه، لا تكبراً ولا تعنتاً، بل احتراماً لشعور أفراد عائلته وأقربائه، وتفهـماً منه لانشغالاتـهم واهتـماماتـهم، ولكم كان يردد ويقول لـهم: لا تـهتموا لأمري، اتركوني وشأني، اذهبوا إلى عيالكم وأعـمالكم. ولم يكُن يرضخ إلاّ لإصرار زوجته على البقاء قُربه للعناية به، كيف لا، وهي التي

عاشت إلى جانبه عـمراً تكافح وإياه يداً بيد، وتعاونه بقناعة ومـحبة في كلّ كبيرة وصغيرة حتى كبرت العائلة وكبرت الأعـمال وتـحقّقت الأهداف والأحلام...

منذ أسبوعين، دخل الـمستشفى إثر نوبة قلبية حادة، حتى إنّ قلبه توقّف لبعض الوقت، وإذ عاد نبضه واستعاد الـمرحوم جوزيف وعيه والحياة، قال لولده اليكر خليل: "افزعوني طيلة حياتي من هذه الساعة الرهيبة، لكنها يا ولدي سـهلة لأنك لا تشعر سوى بالراحة.

ومن الـمؤكّد أنّ مصدر الراحة التي شعر بـها لبعض الوقت، هو الضـمير الـمرتاح والقلب النقي والـجوهر الطيب. ويبدو أنّ الـمصدر الأهم هو ذلك الفرح الذي كان يـملأ حياته ويفيض في أعـماقه ويعطيه قوة الاحتـمال.

نعم أيها الأخوة، أمسِ أفشى إلينا أحد الناس بسر أبيض فأخبرنا عن أعـمال الرحـمة التي كان أبو خليل يقوم بـها سراً، وكأنه لـم يشأ أن تعرف يـمناه بـما تقوم به يسراه. أحب أبو خليل الفقراء وساعدهم من غير منة، وفي اعتقادنا أنّ أعـمال الرحمة هذه كانت تبعثُ فيه فرح العطاء الذي ما بعده فرح...

بـهذا الفرح أنهى الـمرحوم جوزيف حياته مـطـمئناً إلى عودة ولده شربل من رحلة الحج إلى فاطيـما، هذه العودة التي جرت بعناية العذراء؛ فالعزيز شربل، كان ينوي البقاء في الخارج حتى آخر تـموز، لكن حدثَ أن فقد جواز سفره، فألْـهمته العذراء العودة إلى لبنان على الرغم من طـمأنة أخيه الأكبر له؛ فعاد بعد حصوله على إذن مرورٍ خاص، وما إنْ وطئ أرض الـمطار حتى قُصف وأُقْفل.

فعاد شربل أباه في الـمستشفى، فاطـمأنّ قلب الوالد، وقبل أن يغمض عينيه ليشعر بتلك الراحة التي حدث ابنه خليل عنـها، استجاب لرغبة ابن حـميه أخينا الأب بولس فـهد في أن يعترف، فاعترف متخلّصاً من خطايا هذا العالم. ولـما جاء كاهن الـمستشفى ليناوله جسد الرب، وجد قناع الأوكسيجين على وجهه فـمضى، غير أنّ أبا خليل نادى ابنته الصغرى جيسي، وطلب إليـها أن تستدعي الكاهن، فعاد وناوله الزاد الأخير.

إنها ميتةُ الأبرار الصالحين: فرح وحال نعـمة ونقاوة قلب وراحةٌ نفسيةٌ عارمة، فطوبى له لأنه يعاين وجه الله.

وإذ يستريح فقيدنا الغالي في الأحضان السـماوية، وإذ نصلّي وندعو له بـحياة ثانية ملؤها السعادة الأزلية، نتوجه إلى زوجته الفاضلة جان دارك وإلى ولديه العزيزين خليل وشربل وابنتيه جيزيل وجيسي وعائلاتـهم، بأصدق مشاعر التعزية في مصابِـهم الأليم.

كـما نقدم إلى أشقّائه وإلى حضرة أخوينا الأبوين الفاضلَين بولس فـهد وناجي خليل، وإلى جميع أهله وأقربائه وأصدقائه أسـمى تعابير الـمحبة والعزاء، سائلين الله أن يسكب الصبر والسلوان في قلوبكم جـميعاً، وأن يتغمد الفقيد بواسع رحـمته وأن يفْسِح له في جنات نعيـمه. آمين.

الاباتي سمعان ابو عبده

رئيس عام الرهبانية المارونية المريمية